مفهوم الخطّ ووظائفه
مقاربة لسانيّة سيميولوجية

لعبيدي بو عبد الله
جامعة البليدة

Résumé

La complexité de la question de l'écriture se vérifie dans ces diverses dimensions; historique, artistique, psychologique, linguistique et éducative.

Nous tentons d'exposer la position des différentes écoles linguistiques et les débats qu »elles ont soulevés pour en tirer une définition de l'écriture qui prenne en compte tous ses aspects; sémiologique, phonétique et esthético-cognitif et identifier ses fonctions particulièrement dans ses rapports à l'oral.

لا شكّ أنّ اللّغة المنطوقة والمكتوبة تعدّ إحدى الوسائل التي يستخدمها الفرد لتلبية حاجياته الاتّصاليّة وتفاعلاته داخل المجتمع. والكتابة (أو الخطّ)[1] كخطاب بصريّ آلية من الآليّات الاتّصالية المركّبة والمعقّدة في آن واحد؛ لاتّصالها بالجانب النّفسيّ والفكريّ معًا، باعتبارها ظاهرة لغويّة ونفسيّة وعصبيّة وذهنيّة وتربويّة؛ فهي ترجمان الفكر واللغة[2] وناطق باسم الشّخصيّة والطّبع. وإنّ ظاهرة الخطّ تبسط أمام الفكر البشريّ منذ القديم صنفين من القضايا: أحدهما نوعيّ والآخر مبدئيّ عامّ.

ـ فأمّا الصّنف الأوّل فيتمثّل في العناصر الجماليّة للخطّ باعتباره نظامًا مخصوصًا له قواعده الفنّيّة والجماليّة؛ وهذا الجانب نوعيّ باعتبار أنّه متعلّق بكلّ خطّ على حدة، أيّا كان هذا الخط عربيّا أو لاتينيًّا.

ـ وأمّا الصّنف الثّاني من القضايا فيتّصل بالمشكلات التي يواجهها النّاظر في ظاهرة الخطّ من حيث هي ظاهرة بشريّة مطلقة لها أبعادها التّاريخيّة والنّفسيّة والاجتماعيّة والفلسفيّة والمعرفيّة.

ويتطلب البحث في هذه المسائل التّطرّق إلى قضايا عديدة، منها تحديد مفهوم الخطّ من وجهات نظر مختلفة لسانيّة وسيميولوجيّة وضبط خصائصه ووظائفه، إلى تحسّس نواميسه المحرّكة له، حتّى يقارب قضايا أكثر تجريدًا وأبعد نسبيّة، كقضيّة أصل الخطّ وعلاقة الخطّ بالفكر، وتفاعله بالسّلوك الإنسانيّ، فضلاً عن مشكل الدّلالة السّيكولوجيّة ذاتها، وكيف يحدث إدراك العقل للحروف وإعادة إنتاجها من جديد، ودور الجهاز العصبيّ، والعوامل المتحكّمة في طبيعة الخطّ .. إلخ.

ومن هذا المنطلق فإنّ موضوع الخطّ أو الكتابة موضوع بالغ الأهمّيّة؛ للوظيفة التي يحوزها على جميع الأصعدة، ويكفي أنّه دال على ما في النّفس[3]،

ومخرج بالفعل ما هو مسجون في ذهن الفرد بالقوّة ! ولذا نجد الباحثين فيه منذ القديم إلى عصرنا قد تناولوه من نواح عدّة: تاريخيّة/ أثريّة، وفنّيّة/ جماليّة، ولسانيّة وفلسفيّة، وعصبيّة/ معرفيّة، وسيكولوجيّة وغرافولوجيّة.

وسأحاول من خلال هذا البحث تسليط الضّوء على الجانب اللّسانيّ وموقف اللّسانيّين من الكتابة أو الخطّ، ثمّ ذكر وظائفه في مقاربة بين المنطوق والمكتوب.

إن التّساؤل الأساسيّ الذي يطرحه كلّ دارس للّسانيات بمختلف اتّجاهاتها يتعلّق بالموقف الذي اتّخذته الدّراسات اللّسانيّة من مسألة الوحدات الخطّيّة (Graphèmes)، وعن طبيعة المرتكزات التي أسّست عليها ذلك الموقف، بحيث إنّ الدّرس اللّسانيّ قد تمحور حول الوحدات الصّوتيّة (Phonèmes). ثمّ عن إمكانيّة قيام علم بديل عن علم اللّغة بكلّ فروعه النّظريّة والتّطبيقيّة يقدّر تلك الوحدات الغرافيّة حقّ قدرها؛ بجعلها موضوع دراسة، وتنزيلها في سياقاتها اللّغويّة والاجتماعيّة والإبستمولوجيّة بشكل عامّ.

في الواقع ليس من السّهل تقديم صورة شاملة عن المراحل التي عرفها حضور الكتابة في مجال الدّرس اللّسانيّ الحديث بمختلف مدارسه. غير أنّ الشيء المؤكّد لدى الدّارسين[4] وأنّ اهتمام اللّسانيّين بالدّليل البصريّ لم يكن في أغلب الحالات إلاّ اهتمامًا هامشيًّا، ولم يلتفت إليه إلاّ في مرحلة متأخّرة في صورة انتقادات وجّهها بعض الدّارسين للطّروحات اللّسانيّة الكلاسيكيّة في الموضوع؛ قصد محاولة تدارك النّقص المتولّد عن هذا التّهميش.

فاللّسانيات البنويّة التفتت إلى الدّليل الخطّيّ لتختزله، بل تعزله عن موضوعها كعلم، عاملة بذلك على تعطيل إمكانيّة ظهور علم خاصّ يتناول هذا الصّنف من الأدلّة البصريّة. هذا على الرّغم من وجود

حقول معرفيّة عديدة اهتمّت بالكتابة وأقرّت بالخصوصيّة النّوعيّة التي تميّز الدّليل الخطّيّ[5].

غير أنّ الاهتمام الهامشيّ المشار إليه يقترن مع ذلك بإقرار اللّسانيّات البنويّة بضرورة وجود علم للكتابة، إلاّ أنّ هذا الإقرار يرد مقترنًا بالإعلان عن استحالة وجوده[6]!

أ ـ دي سوسير (De saussure) والعلامات الخطّيّة

نجد أنّ "دي سوسير" قد أبرز استحالة القيام بتجريد الكتابة كصيغة يتمّ عبرها تصوير اللّغة بدون انقطاع، مؤكّدا على ضرورة الإقرار بأهمّيّتها وبعيوبها وأخطارها. وتماشيًا مع تصوّره المعروف للدّليل اللّسانيّ، أكّد "دي سوسير" تميّز الكتابة (Ecriture) عن اللّسان (Langue)[7].

ويبرز في السّياق ذاته أنّ للّسان تقليدًا شفويًّا ثابتًا مستقلاً عن الكتابة، غير أنّ جاذبيّة الشّكل المكتوب تمنعنا دائمًا من رؤيته[8].

ومن ثمّ نجده يلحّ في محاضراته على ثانويّة المكتوب وأوّليّة الشّفويّ. هذه المفاضلة نجد لها تفسيرًا في أساس التّصوّر "السّوسيريّ" العامّ، من خلال التّمييز الأساسيّ بين المادّة التي على اللّسانيّ أن يعالجها وبين الموضوع الذي يختاره للبحث.

المدارس اللّسانيّة والوحدات الخطّيّة

لقد تناولت المدارس اللّسانيّة مسألة الكتابة من زوايا خاصّة. ويمكن في هذا الصّدد الوقوف على ثلاثة اتّجاهات، وهي على التّوالي: اتّجاه فونولوجيّ تمثّله مدرسة "براغ"، واتّجاه شكلانيّ تمثّله مدرسة "كوبنهاقن" واتّجاه سلوكيّ تمثّله البنيويّة الأمريكيّة.

أ _ مدرسة " براغ " الفونولوجيّة

لم تقدّم هذه المدرسة سوى تأطير نظريّ واف لأوّليّة الشّفويّ كما أقرّ به " دي سوسير"، بل ابتعدت متطرّفة بالقناعة المذكورة حول خصوصية اللّغة كفونيمات (Phonèmes) وثانويّة التّمثيل الخّطيّ البصريّ للّغة.

وعلى هذا الأساس ذهب "ياكبسون" (Jakobson) إلى حدّ إقرار استحالة التّفكير في اللّغة وخصوصيّاتها دون العودة إلى المادّة الصّوتيّة. إنّ الوحدات الخطّيّة حسب هذا الطّرح تمثّل بالأساس دوالاً على مدلولات تمثّلها الفونيمات. ومن هنا يبدو أنّه من الممكن نظريًّا أن تدرس لغة ما في هيئتها الخطّيّة شريطة معرفة مسبقة بدلالة الكلمة المكتوبة[9].

وإلى جانب الطّرح "الياكوبسونيّ" يمكن الوقوف عند إضافة لسانيّ آخر من الحلقة نفسها هو "ج. فاشيك" (Vachek.J)، ففي محاولة منه لتقديم توضيح حول الطّرح السّوسيريّ قام بإدماج الأبعاد التّاريخيّة لتكون اللّغات المكتوبة؛ باعتبارها تمنح أجوبة ملائمة للحاجات التّواصليّة للجماعات اللّسانيّة.

فبعد الإشارة إلى إلحاح "دي سوسير" على أهمّيّة الشّفويّ وأوّليّته، معتبرًا هذا الإلحاح أصلاً لتحويل اهتمام اللّسانيّين عن أهمّيّة الكتابة يقدّم "فاشيك" (Vachek.J) توضيحات اصطلاحيّة مميّزًا بين : لغة مكتوبة _ كتابة _ إملاء(قواعد)[10].

ب _ جماعة كوبنهاقن الشّكليّة

تبدو مدرسة "كوبنهاقن" شكليّة متطرّفة؛ إذ اللّغة عندهم تتواجد مع الكتابة دون أوّليّة إحداهما على الأخرى، فهما وحدتان تعبيريّتان يمكنهما أداء الوظيفة نفسها بالنّسبة لوحدة في المحتوى، والعكس أيضًا

صحيح، بحيث يمكن لوحدتين من وحدات المحتوى أن تكونا وظيفتين لوحدة تعبيريّة.

إنّ أصحاب هذا الاتّجاه _ كما يرى "الماكري" _ يؤطّرون القضيّة من منظور سيميولوجيّ عامّ يستدعي أنساقًا تعبيريّة أخرى غير اللّغة وغير الكتابة اللّتين ليستا إلاّ تحقيقين من بين أنساق ممكنة لا متناهية، لا يمكن الجزم بأساسية أحدهما بالقياس إلى الآخر[11].

ج _ *البنيويّة الأمريكيّة السّلوكيّة*

قد تناولت البنيويّة الأمريكيّة موضوع الكتابة من خلال دراسات "بلومفيد" (Bloomfield) وبولنجر (Bolinger).

هذا الاتّجاه يقدّم الكتابة كمجرّد وسيلة لتسجيل اللّغة عبر أدلّة بصريّة. فالكتابة ليست هي اللّغة؛ ذلك أنّ لغات الشّعوب التي لا تمتلك الكتابة هي أيضا تحقّق وظائفها بفعاليّة لغويّة، مثلها في ذلك مثل لغات الأمم التي تعرف القراءة والكتابة.

ويرى "بلومفيد" أنّ دراسة الكتابة تقتضي معرفة باللّغة، في حين أنّ العكس ليس صحيحًا. وهذا الطّرح يقوم على تأكيد ثانويّة المكتوب عوض الموازنة بين التّمثيلين البصريّ والصّوتيّ. فمن منظور محكوم بنظرة براغماتيّة حول استعمال اللّغة يرى "بلومفيلد" أن لا شيء يمنع من دراسة طريقتين نابعتين من نفس الخطاطة السّلوكيّة الذّهنيّة دراسة متوازنة.

وهكذا يرى أنّ الأشكال اللّغويّة البصريّة _شأنها شأن الأصوات _ تعدّ منبّهات تحدث استجابات معيّنة، يقول في هذا الصّدد: «يمكننا أن نرى أشياء كثيرة دفعة واحدة، في حين لا يمكننا أن نسمع أصواتا كثيرة، كما أنّنا نتكيّف بشكل أكبر مع الأشياء البصريّة خطّيّة كانت

أو بيانيّة أو حسابات مكتوبة أو ابتداعات مماثلة أنتجت من أجل ترتيب أشياء أكثر تعقيدًا[12]».

وقد ظهرت بعض الدّراسات اللّسانيّة كاستثناءات نظريّة حاولت التّنظير لموضوع الكتابة عاملة على سدّ النّقص الذي تبرزه اللّسانيّات، ومن هذه الدّراسات أذكر ما يلي :

_ دراسة جـــلب (Gelb. J)

إنّ الدراسات التي تناولت الموضوع في غالبها مجرّد كتابات تاريخيّة، غير أنّ مجمل هذه الدّراسات التّاريخيّة قبلت بمسلّمات النّظريّات اللّسانيّة السّالفة الذّكر، فرصدت بذلك تطوّر اللّغة والكتابة كحركة من المحسوس إلى المجرّد. والعلم الجديد المقترح تحت اسم "الغراماطولوجيا" (Grammatologie) أو علم الكتابة يعوّل منه على تجاوز المرحلة التّاريخيّة في تأمّل الموضوع، وذلك باضطلاعه باكتشاف القوانين التّطوّريّة، إضافة إلى تقديم تعريف واف لعمليّة الكتابة، وكذا التّطرّق إلى المبادئ والتّقنيّات الخطّيّة[13].

لقد كان عمل "جلب" (Gelb) لبنة أولى في هذا الاتّجاه من خلال دراسته نظريّة الكتابة أسس الغراماطولوجيا

(A study of writing the fondation of grammatology)[14]

_ دراسة جاك دريدا (Jaques Derrida)

بعد أن ظلّ موضوع الكتابة ملغى وأحيانًا مهمّشا، بحيث اتّبعت أغلب الاتّجاهات تقليدًا ثابتًا يرتكز على الصّوت(Phonocentrisme) منذ ما قبل أفلاطون حتّى "دي سوسير"[15]. لذلك فإنّ "دريدا" (Derrida) في كتابه «عن الغراماطولوجيا» (De la grammatologie)

يطرح تناولاً انتقاديًّا للتّصوّر "السّوسيريّ"، الذي ينعته الماكري بأنّه تصوّر ميثافيزيقيّ للدّليل اللّسانيّ (Signe linguistique).

وقد أكّد على أنّ امتياز الدّال الصّوتيّ على الدّال الخطّيّ لا يمكن أن يكون مشروعًا إلاّ بالتّمييز بين الدّاخليّ أو الجوهريّ، حيث مكمن الفكر، وبين الخارجيّ حيث توجد الكتابة.

وقد رصد الماكري انتقادات "دريدا" (Derrida)، أوردها باختصار:

1 - وجود تعارض في صلب نظريّة " دي سوسير" بين الأطروحة العامّة حول اعتباطيّة الدّليل والفكرة الخاصّة القائلة بالتّبعيّة الطّبيعيّة للكتابة.

2 - لا يمكن التّفكير في الدّليل إلا عبر مؤسّسة دائمة تبرز حضوره الدّائم والمستمر أي عبر حضور الأثر (Trace) أو البصمة التي يحفظها فضاء الكتابة وتتضمّن المكان والزّمان، وهذا يعني أنّ الكتابة تقتضي في الوقت نفسه، موضعة فضائية وموضعة زمانيّة وعلاقة بالآخر.

3 _ إذا سلّمنا مع " دي سوسير" فيما يتعلّق بقيمة الدّليل اللّغويّ، يكون المقطع الصّوتيّ غير مؤسّس إلاّ على عدم تطابقه مع المقاطع الأخرى، وإذا سلّمنا بأنّ اللّغة مكوّنة من اختلافات فإنّ بنية اللّغة في كلتيهما لا يمكن أن تكون إلاّ لعبة إيجاد وإحالة، أي الكلمة لا توجد إلاّ في صورة أثر يختزل إليه.

وإذا كانت الغراماطولوجيا (Grammatologie) المقترحة من قبل "جلب" و"دريدا" تضطلع باكتشاف القوانين التّطوريّة، إضافة إلى تقديم تعريف واف _كما سبق_ لواقعة أو ظاهرة الكتابة فإنّ هناك علما آخر مقترحًا هو الغرافولوجيا (Graphologie) أو "علم الخطّ" الذي يضطلع بتفكيك الوحدات الغرافيّة ودراستها كصيغ أو أشكال قصد رصد الطّرق المختلفة لرسم حرف معيّن، ومن ثمّ منح تأويل لكلّ شكل[16].

وهنا لابد من الإشارة إلى أنّ الشّيء اللاّفت للانتباه هو أنّ هناك خلطًا لدى الدّارسين في استخدام المصطلح (Ecriture) لمفهومي "الخطّ" و"الكتابة".

فإذا كان الخطّ عند بعض الدّارسين يقصد به كيفيّة الكتابة مع مراعاة المقاييس الفنّيّة والنّسب الجماليّة[17]، وهذا توجّه فنّيّ وجماليّ بحث؛ لأنّه يندرج ضمن ما يعرف بفنّ الخطّ (La Calligraphie)، فإنّ بعضهم الآخر يطلق تسمية (Ecriture) على الخطّ والكتابة (أو المكتوب) معًا، والأمثلة على ذلك عديدة[18]. غير أنّ هذه اللّزاجة في ضبط المفهوم تحدث نوعًا من الفوضى في الجهاز الاصطلاحيّ اللّسانيّ والغرافولوجيّ. والحقيقة أنّ الفرق بينهما كالفرق بين العلمين: علم الكتابة (Grammatologie) وعلم الخطّ (Graphologie).

والجدول الآتي يوضّح التّمايز بين المفهومين والحقل المتداول فيه:

التّسمية	المقابل الأجنبيّ	العلم	الحقل المعرفيّ
الكتابة/ المكتوب	Ecrit	علم الكتابة (Grammatologie)	اللّسانيّات
الخطّ	Ecriture	علم الخطّ (Graphologie)	علم النّفس علم الاجتماع
		فنّ الخطّ (Calligraphie)	الفنون الجميلة علم الآثار التّاريخ

جدول _ 1 _ «الفرق بين مصطلح " الخطّ " و" الكتابة" (المكتوب)»

غير أنّه _ والحال هذه _ يمكن استخدام المصطلحين معا لاطّراد ذلك في المراجع؛ ولأنّ لكلّ منهما علاقة بالآخر: علاقة تكامل وامتداد وتلازم.

_ الوحـــدات في الخطّ

من خلال ما سبق واستنادًا إلى الأسس اللّسانيّة والفونولوجيّة من جهة والغرافولوجيّة من جهة أخرى يمكن أن نستخلص مفهومًا للخطّ . ذلك أنّ اللّسانيّات تنظر إلى اللّغة كمجموعة من العلامات أو الأدلّة (Signes)، والدّليل مكوّن من عنصرين : دالّ ومدلول، وأنّ العنصر اللّسانيّ _ كما يرى عبد السّلام المسدّي _ لا يستمدّ مقوّمات ارتباطه الدّلاليّ إلاّ ممّا يلابسه من اصطلاح وتواطؤ بين أفراد المجموعة اللّغويّة المتنزّل بها. بل إنّ الموجودات ذاتها لا يمكن التّحاور بشأنها إلاّ بواسطة العلامات اللّغويّة المتّفق عليها[19].

وكذلك بالنّسبة للأدلّة الخطّيّ(Signes graphiques) أو ما تسمى بـ (Graphèmes) فإنّ دلالة الحرف على المدلول هو بمثابة الحزام الفلّينيّ الذي يطفو به السّبّاح فوق الماء ليصل إلى هدفه ـ على نحو ما أشار إليه " دي سوسير" في محاضراته[20].

ومن ثمّ فإنّ الدّليل الخطّيّ وجه آخر للدّليل اللّسانيّ (ينظر الشّكل ـ1ـ) :

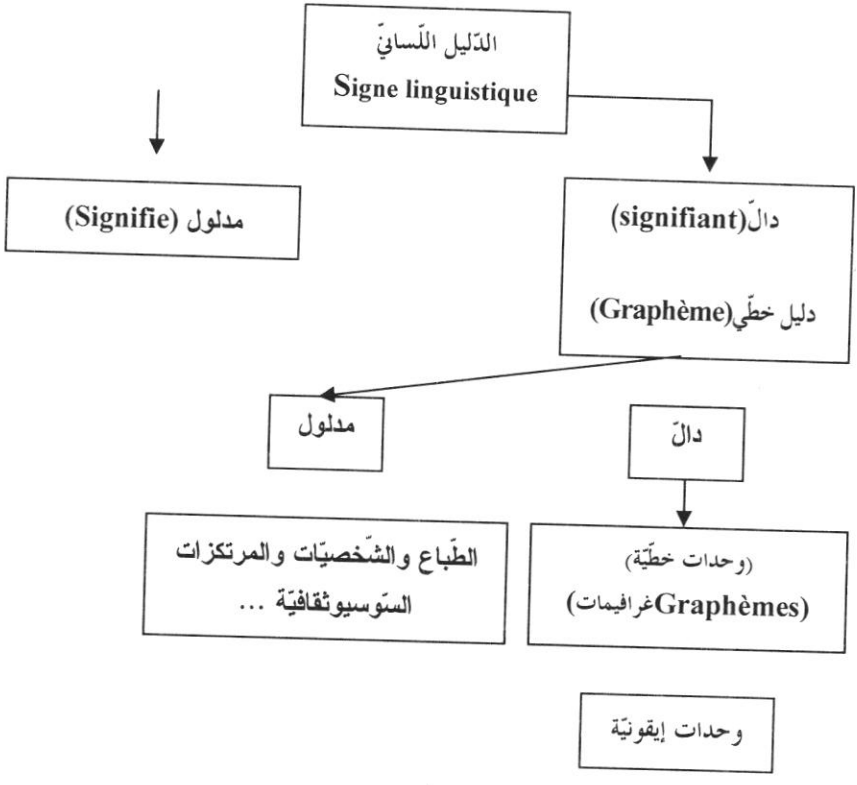

الشّكل ـ 1 ـ «الدّليل الخطّيّ (Signe graphique)»

إنّ الدّليل الخطّيّ (أو الغرافيّ) علامة ثلاثيّة الأبعاد:

1 ـ بعد شكليّ (صوريّ) : يحدّد قيمتها الفنّيّة وخصائصها كتركيب غرافي، مشكّل من عدّة مقاطع، وكلّ مقطع مشكّل من عدّة وحدات

وكلّ وحدة جزء من أجزاء مختلفة داخل نظام (أو سديم) خطّيّ. باعتبار الخطّ الصّورة المعبرة عن اللفظ[21]، وعلمًا بأنّ المبدأ المتحكّم في نظام العلاقات الإيقونيّة هو التّشابه؛ لأنّ الإيقونة تمثّل موضوعها من خلال التّشابه بين الدّال والمدلول في المقـــام الأوّل[22].

2 ـ **وبعد صوتيّ** : يحدّد وظائفها الفونولوجيّة.

3 ـ **وبعد جماليّ ـ معرفيّ** : يعكس قدرة مشكّل الحروف على إبراز تلك الوحدات الغرافيّة، انطلاقًا من تصوّره الذّهنيّ لعناصرها الإيقونيّة من جملة أنظمة المفاهيم والأنماط (Conceptes / Formes) التي يتصوّرها الفكر. ولهذا البعد في عمليّة الكتابة علاقة بالوظيفة الجماليّة؛ لأنّ الأدلّة الخطّيّة مثل الأدلّة اللّسانيّة لا ينظر إليها كوحدات مجرّدة، وإنّما ينظر إليها كبنية مؤتلفة مع مجموع الوحدات الإيقونيّة ذات الخصائص والوظائف الفونولوجيّة.

ثمّ إنّ الحروف أو ما اصطلحنا عليه بالوحدات الإيقونيّة مسجونة في ذهن الفرد بالقوّة، والذي يطلق سراحها ضمن عملية فيزيائيّة وسيكولوجيّة وذهنيّة ـ عصبيّة، ويخرجها بالفعل إنّما هو القلم[23].

وهكذا فإنّ الخطّ مجموعة من الأدلّة الخطّيّة، وكلّ دليل مكوّن من دالّ وهو الوحدات الخطّيّة أو الغرافيمات، وهي مكوّنة من مجموعة إيقونات(Icones) ، ومجموع هذه الإيقونات يشكّل لنا ما نصطلح عليه بالحروف(Lettres)، وجملة هذا النّظام الغرافيّ ذو طبيعة صوتيّة، وبعد جماليّ ـ معرفيّ. كما هو موضّح في الشّكل ـ 2 ـ :

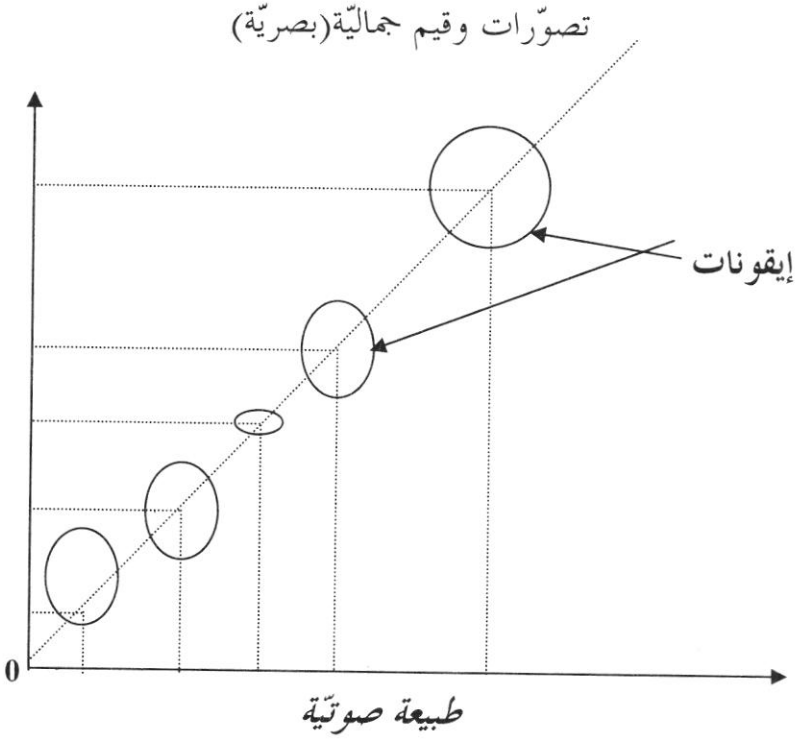

الشّكل _2_ «الوحدات الخطّيّة بأبعادها الصّوتيّة والجماليّة»

وتتجسّد من خلال اتّساق الطّبيعة الصّوتيّة والقيم الجماليّة الوظائف اللغويّة المختلفة التي يشترك فيها المكتوب، أبسطها الوظيفة الإبلاغيّة.

ومن خلال الشّكل (1) يمكن لنا أن نستخلص ما يلي:

_ إنّ القيمة "0" في المنحنى تمثّل الطّفل قبل مرحلة رسم الحروف وتهجّيها، أو الأجنبيّ غير النّاطق للعربيّة، فعند تعلّم تهجّي الحروف يبدأ المنحنى في الارتفاع من حيث الطّبيعة الصّوتيّة، فإذا تعلّم الكتابة بدأ محور القيم الجماليّة الذي يضبط النّظام الإيقونيّ يتصاعد.

ـ وكلّما ارتفع محور القيم الجماليّة كلّما أمكن معرفة الطّبيعة الصّوتيّة للوحدات الغرافيّة، أي تمنح تلك الوحدات مباشرة للتّعرّف، بحيث لا تتوقّف العين في (كنس) الوحدات أثناء عمليّة القراءة.

ـ وإذا حدث العكس، يحدث غموض في طبيعة الوحدات، ممّا ينبئ عن وجود صعوبة في فكّ رموز المقروء، ومن ثمّ لا تحدث الانقرائيّة، ونكون هنا بصدد الحديث عن خطّ رديء (Ecriture illisible)[24].

وظائف الخـــطّ

يحسن بنا هنا الإشارة إلى أنّ هناك قرابة بين الدّليلين اللّسانيّ والخطّيّ(Signe , Linguistique/ Graphgique) بما أنّ الاثنين يوظّفان للتّعبير عن الأفكار في اللّغة الواحدة، ويحسن بي هنا أن أسوق قول الجاحظ، حيث يرى أنّه لا فرق بين الخطّ والصّوت المتلفّظ به، وذلك في قوله: « ... ولا بين الحروف المجموعة والمصوّرة من الصّوت المقطّع في الهواء، ومن الحروف المجموعة المصوّرة من السّواد في القرطاس فرق[25]». غير أنّه يمكن القول بأنّ الاختلاف الموجود بينهما يكمن في انتمائهما لنسقين متمايزين: فالكتابة تكوّن نسقًا يخضع لكلّ الأنساق اللّسانيّة لإلزامين اثنين: التّوفّر على مجموعة محدودة من الأدلّة، وعلى قواعد تضبط اندماج هذه الأدلّة.

والجدول الآتي يوضّح أوجه الاختلاف بين المنطوق والمكتوب:

	المنـــطوق	المكـــتوب
المرتـــكز	نسق من العناصر اللّسانيّة المتمظهرة صوتيًّا.	نسق من العناصر اللّسانيّة المتمظهرة غرافيًّا.
الوظيـــفة	الاستجابة لمنبّه يتطلّب إجابة عاجلة ومباشرة.	الاستجابة لمنبِّه لا يستدعي إجابة عاجلة.
صـــيغة الاستجابة	متحرّكة. إبراز البعد الانفعاليّ والشّعوريّ إلى جانب المظهر التّواصلي المتضمّن الجواب.	ثابتة. تصحيح الجواب وحفظه إلى جانب المظهر المتضمّن في الجواب.

جدول _2_ «أوجه الاختلاف بين المنطوق والمكتوب[26]»

والكتابة إضافة إلى ما تقدّم تشتغل وفق سنن خطّيّ (Codegraphique) / لسانيّ، فهي تتطلّب إلى جانب المعرفة المعجميّة والنّحويّة معرفة قواعد الإملاء. وإنّ ما نكتبه ليس هو ما نسمعه، ولكنّه ما نفهمه، والعبور من اللّغة المنطوقة إلى اللّغة المكتوبة لا يتمّ عبر الأصوات، ولكن عبر الفكر...إذ أنّ الإملاء يلغي نرجسيّة القول[27].

وإذا كان للمنطوق الوظائف السّتّ حسب التّصوّر الياكوبسونيّ الكلاسيكيّ، فإنّ للمكتوب الوظائف نفسها، وهي قابلة لأن تتحدّد مع بعض الاختلافات الجزئيّة، وأستعير في هذا الصّدد جدول الوظائف كما عرضه "تاجان" (Tajan) و"دي لاج" (Delage) في كتابهما، ملخّصًا في الجدول الآتي :

الوظـيفة	تمركـزها	تعريف ووصف الوظـيفة
المرجعيّة (Référentielle)	على المرجع النّصّيّ فقط	تناسب المعلومات الموضوعيّة المنقولة.
التّعبيريّة (Expressive)	على المرسـل	في الكتابة تختفي نبرات الصّوت والإشارات والحركات الإملائيّة، ويمكن للتّرقيم أن يعوضهما، ولكن بفعاليّة أقلّ، غير أنّ هذه الوظيفة مهمّة، فهي تظهر في التّعبير عن الآراء والأحكام والمشاعر الشّخصيّة.
التّأثيريّة (الانتباهيّة) (Phatique)	على المتلـقّي	في الكتابة يبرز فرق ضئيل بالقياس إلى الشّفويّ، فهنا نجد الاستعمال نفسه لضمير المخاطب وللأمر وللنّداء.. من أجل إقناع المتلقّي، ويكون استعمالها أساسيًّا في الملصقات والإعلانات.
اللّغـويّة (Linguistique)	على القـناة	تختلف وسيلة الاتّصال عن تلك المستعملة في التّواصل الشّفويّ، مثل: التّنقيط والإملاء_الكتابة المقروءة _تطبيق القواعد الوضوح

		لتيسير القراءة_ التّنويع الطّباعيّ _ تنظيم الصّفحة.
الميثالغـــويّة (Métalinguistique)	عـــلى السّنن	التّعريف نفسه كما في الشّفويّ، فالنّصّ والرّسالة البصريّة يمكن أن يتعالقا ميثالغويا.
الشّعـــريّة (Poétique)	على الرّســـالة	هذه الوظيفة مرتبطة على المتعة الجماليّة تتحدّد كما هو الشّأن في الشّفويّ، غير أنّها تكتسي أهمّيّة زائدة في الشّعارات والنّصوص الإعلانيّة، وتبرز في اختيار الكلمات وطريقة تركيبها.

جدول _ 3 _ «وظائف الخطّ[28]»

يمكن أن نلاحظ بأنّ هذه الوظائف على ما تتّسم به من كلاسيكيّة، تكاد تتّفق مع وظائف المنطوق، دون الإشارة إلى التّمايزات الأساسيّة الموجودة بين المكتوب والمنطوق، خاصّة في ما يخصّ العوامل الفيزيائيّة (التّقنيّة) والسّيكولوجيّة والغرافولوجيّة والمعرفيّة بوجه عامّ، لأنّ الكتابة مثلما سبقت الإشارة في بداية هذا المقال عمليّة مركّبة فلا يسمح بتناول جانب بمعزل عن آخر، رغم ما في الأمر من صعوبة.

وفي هذا الصّدد يمكن الإشارة إلى وظائف أخرى ملخّصة من ما أورده "روبير أوليقو" (Robert Olivaux). ولا شكّ في أنّها تلتقي مع الأساس العامّ مع ما سبق ذكره، وهي متمثّلة في ثلاث وظائف هي : الوظيفة الأداتيّة _الوظيفة العلائقيّة _ وظيفة التّصوّر الشّخصيّ.

1 ـ الوظيفـــة الأداتـــيّة

إنّ الوظيفة الأكثر أهمّيّة للكتابة هي تثبيت الفكر أو الكلام، من أجل تحويله وتبليغه. وبهذه الصّفة فهو وسيلة أو أداة لا يمكن الاستغناء عنها أو استبدالها[29].

وبتثبيت الفكر، فإنّ الخطّ ـ على المدى القصير أو الطّويل ـ يسدّ ثغرات الذّاكرة، ويحميها من النّسيان، وكلّ ما يتعلّق بالذّكريات والمعارف، أو بالتّصوّر الشّخصيّ لكلّ فرد.

الخطّ له وظيفة أرقى بكثير من اللّغة المنطوقة، دور توثيقيّ تسجيليّ، بحيث يدخل في بناء تواريخ الشّعوب؛ لأنّ الأمّة كما الفرد الواحد فإنّ ما يمكننا به تحديد سماته وخصائصه هو لغته المكتوبة كما المنطوقة[30].

وحتّى تكون للكتابة فعاليّة كافية في هذا السّياق ينبغي أن تكون العمليّة سهلة التّنفيذ، وسريعة بما فيه الكفاية.

وإنّ يسر إنشاء الوحدات الخطّيّة يقتضي غياب التّعب أو ما يسمى بحرج الكتابة. بمعنى أنّ حسن استعمال الأداة أو الآلة الخاصّة، والحالة السّليمة لها يشتركان مع غياب الصّعوبات النّفسيّة والحسّيّة/الحركيّة والعصبيّة، وكذا وجود مستوى محدّد من الذّكاء وانعدام الصّعوبات اللّغويّة.

إنّ الوظيفة الأداتيّة تتطوّر خاصّة عند بداية التّعلّم ما دامت الكتابة في بعدها الشّكليّ (الصّوري) ـ المعرفيّ ما هي إلا إعادة بناء أشكال ورسوم أو نماذج مكتسبة.

2 ـ الوظيفة العلائقـــيّة

إنّ هذه الوظيفة تتطلّب وجود الوظيفة السّابقة، فهي تدرس إذن في المرحلة الثّانية. وممّا سبق ، فكما أنّ صيغة أو طريقة الاتّصال

والتّعبير والتّواصل هامّة لكلّ فرد فإنّ للكتابة أيضا مثل هذه الوظائف، وهي بالنّظر إلى بعدها الزّمنيّ تنقسم إلى مرحلتين: ما قبل الكتابة وما بعدها.

ومن ناحية أخرى فإنّ الكتابة تدخل الفرد ضمن حلقة تواصليّة، وهي تقوم بـــ (ترسيم) الكلام. وبالنّظر إلى علاقة الكتابة بالمتلقّي، فإنّ من يكتب في حدّ ذاته لا يعرف كلّ ما سيكتب، كما أنّ الشّخص نفسه أيضًا لا يعرف كلّ ما سيقوله، لذلك فإنّ الكتابة خطاب متعدّد المستويات: موجّه إلى الكاتب نفسه ــ قبل كلّ شيء ــ وإلى القارئ بعده.

ويمكننا الانتقال من خطاب حقيقيّ (شكل ومضمون) أو البقاء في خطاب فضائيّ شكليّ أو ما اصطلحنا عليه بالإيقونيّ.

إنّ طريقة العرض والاعتناء بالكتابة، والمستوى النّحويّ والصّرفيّ يمكّن من تهيئة الجانب الشّكليّ والاستعداد لتلقّي الوحدات الغرافيّة والانتقال من تحليل مستوى الخطاب الإيقونيّ إلى مستوى آخر من تحليل الرّسالة (Message)، الذي ينبغي أن يكون مقروءًا (Lisible).

ولذلك فإنّ بعض الخطابات لا تكون معبّرة، ويقتضي ذلك تحليل ومعالجة رداءة تلك الوحدات الخطّيّة بمستوى من التّحليل أكثر عمقًا. وهنا ننتقل من رسالة إيقونيّة رديئة (نسبيًّا) إلى رسالة لا يعبر من خلالها المعنى إلى المتلقّي[31].

ولإظهار مدى العلاقة بين الخطاب الإيقونيّ والمعنى من جهة، وبين المتلقّي والمستقبل. من جهة ثانية فقد لوحظ أن أغلب التّلاميذ يحاكون معلّمهم؛ لأنّ محاكاة كتابة ما إذا لم تكن في موقع لعب عابر فهي اهتمام تفرضه وضعيّة التّعليم. وهناك من التّلاميذ من يبحث عن كتابة جميلة مقروءة وواضحة يتّخذها كنموذج، وبعضهم يتّخذ الكتابة بهدف الاستعراض وأحيانًا التّحدي، وبعضهم يعبّر عن رفضه في حالة

إملاء المعلّم السّريع بأن يسرع في الكتابة وبالتّالي ينشئ وحدات خطّيّة غير واضحة.

إنّ الغرافولوجي يستطيع أن يوضّح مستوى آخر في البناء الخطّيّ لدى الفرد، والمتعلّق بالقيمة التّعبيريّة للكتابة الموقّعة من قبل شخصيّة وطبع خاصّ، وفق قاعدة زمنيّة وعقليّة وحسّيّة/حركيّة تحت تأثير واقعيّ اجتماعيّ. كما يمكنه قياس الكتابة من حيث القيمة الرّمزيّة في تنظيمها الفضائيّ، ويتسنّى له ملاحظة ربط الحروف بعضها ببعض، وكيفيّة رسمها، ومعاينة جميع العناصر الغرافيّة المتواجدة ضمن البنية الغرافيّة ومحاولة رصد السّمات الأساسيّة للأثر الخطّيّ (Trace graphique).

إنّ ما ترمي إليه هذه الوظيفة هو وضوح الوحدات الإيقونيّة التي تكتسي درجات من الاتّفاق على الأقلّ بين الشّركاء في الاتّصال.

إنّ القول بوضوح الكتابة يعني تحديدًا أن تكون مقروءة أي مفهومة ومن ثمّ مقبولة من قبل المتلقّي وربّما محبّبة[32].

ويمكنني أن ألخّص علاقة الكتابة بمختلف المستويات والقيم في الجدول الآتي :

المستوى	الطّبيعة	القيمة	الهدف
غرافيّ	مقروءة	قيمة غرافيستيكيّة	فكّ الرموز
دلاليّ	مفهومة	قيمة دلاليّة	وضوح المعنى
لسانيّ	مقبولة	قيمة لسانيّة	وجود اتّصال
جماليّ	محبّبة	قيمة جماليّة	إحداث متعة

جدول ـ 4 ـ «علاقة الكتابة بمختلف المستويات والقيم»

3 ـ وظيفة التّصوّر الشّخصيّ

إنّ انتظار رسالة ما يدلّ على أهمّيّتها في الاتّصال، وأوّل ما يلاحظ هو العنوان المكتوب على وجه الظّرف الذي يظهر طريقة عرض الرّسالة، ومن ثمّ فهو يشي نوعًا ما بطريقة كتابتها، وربّما بمضمونها.

وعند قراءتها نشرك بطريقة أو بأخرى حضور المراسل معنا، لأنّ الأمر يتعلّق بحوار.

والبنى الغرافيّة في هذا المجال تختلف من شخص إلى آخر، فبعضهم يكون كثير الحضور، يجري وراء المعنى، وبعضهم يحاول تعويض قصوره في المعنى الدّاخليّ للرّسالة عن طريق تحريف النّماذج الخطّيّة وإعطاء البنية الخطّيّة مسحة جماليّة، وهذا من شأنه أن ينتج لنا كتابة تحمل أقلّ قدر من العفويّة.

وبعضهم يحاول إظهار جودة القلم وسهولة استعماله، ومنهم من يغيّر نمط الكتابة حسب الاحتياجات والمستقبل، والكتابة بهذا تشترك مع الكلام الذي يخضع هو الآخر للمقام والسّياق والمتلقّي.

ويمكن أن تنتقد هذه الوظيفة بالقول إنّ كثيرًا من الرّسائل أو البنى الغرافيّة لا تحمل نفس الخصائص الغرافولوجيّة، بحيث توجد أمام بعض الكتابات الأنيقة بنى غرافيستيكيّة صغيرة ذات خصائص مميّزة، تتطلّب من قارئها أن يكون غرافولوجيًّا أو عالمًا في تحقيق المخطوطات حتّى يتسنّى له فكّ رموزها، وإظهار سماتها الإيقونيّة وهويّتها وقيمتها الغرافيستيكيّة، فهل يعني هذا أنّنا نتواصل مع شخص متعدّد الشّخصيّات؟

يجيب عن ذلك "أوليفو" (Olivaux) بالقول : «إنّ الطّبع لا يمكن تحديده بقياس فيزيولوجيّ وحيد، فهو ناتج أو محصّلة سلوك متدرّج ومتتال، مكوّن من وظائف أداتيّة وعلائقيّة، وشيئا فشيئا يتمّ التّمكّن من استعمال الأداة وحسن الاتّصال[33]».

وكذلك الاندماج النّفسيّ والاجتماعيّ الذي يتمظهر في أصالة ووحدانيّة الكتابة، ممّا يؤدّي بنا إلى إمكانيّة التّواصل مع الآخرين ومعرفة طباعهم. لأنّ بناهم الغرافيّة تصير مثل التّوقيع تمامًا .. لذا يصبح من الصّعوبة بمكان إعادة إنتاج الوحدات لأي شخص بدقّة تام[34].

ويمكن الإشارة في الأخير إلى أن هذه الوظيفة هي محصلة الوظيفتين السّابقتين، وتسمح بالمقاربة والتّحليل العميق على ضوئها بالجمع بين نوعي البنى اللّغويّة الصّوتيّة والغرافيّة. ومن ثمّ يمكن للغرافولوجيّ في دراسته الجمع بين الفونيمات والغرافيمات لأنّهما وجهان لعملة واحدة.

ولتحقيق هذه الوظائف لا بدّ ممن الأخذ بالحسبان عناصر تتعلّق بالمرسل والمستقبل والكتابة (الأثر الخطّيّ)، والمعايير المعتمدة لتشكيلها، ووضعيّة التّخاطب.

الهوامش

1. هناك فرق بين مصطلح "الكتابة" ومصطلح "الخطّ" سيتبيّن لاحقًا.

2. PEUGEOT. T: *la connaissance de l'enfant par l'écriture : L'approche graphologique des difficultés de l'enfant.* Edt: Privat, 1991, France: p XI.

3. ينظر : ابن خلدون، عبد الرّحمن: المقدّمة، ط4، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللّبنانيّ للطّباعة والنّشر، بيروت، 1979، 1 / 744.

4. ينظر الماكري، محمّد : الشّكل والخطاب ــ مدخل لتحليل ظاهراتيّ، ط1، المركز الثّقافي العربيّ، بيروت، 1991: 73.

5. من هذه الدّراسات التي تناولت هذه المسألة:

JEAN LOUIS CHISS ET CHRISTIAN PUCH , *La linguistique et la question de l 'écriture,* Enjeux et débat autour de Saussure et des problématiques structirakes . En Langue Française, N° 59,1983.

6. ينظر: الماكري، محمّد : 73.

7. DE SAUSSURE. F : *Cours de linguistique générale,* édt critique, préparée par Fullio De Mauro, ed Payot, 1980: 45

8. المصدر نفسه الصّفحة نفسها.

9. J. L. CHISS ET C. PUCH 18

10. المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.

11. الشّكل والخطاب : 78.

12. الشّكل والخطاب : 79

13. DUCROT. O et TODOROV. T : *Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage.* 1981 : 255_256.

14. ينظر: الشّكل والخطاب : 80 .

15. DUCROT. O ET TODOROV.T : 256

16. لا يسع المجال في هذا المقال للتّطرّق إلى تاريخيّة هذا العلم وأسسه النّظريّة والتّطبيقيّة. والشّيء اللاّفت للانتباه هو أنّه قطع أشواطًا هائلة لدى العلماء الأوروبيّين: الفرنسيّين والألمان في ما يخص الخطّ اللاّتينيّ، أمّا البحوث الغرافولوجيّة العربيّة فتكاد لا تحصى قلّة.

17. ينظر : شريفيّ، محمّد :خطوط المصاحف عند المشارقة والمغاربة، من ق 4 إلى 10 هـ، الشّركة الوطنيّة للنّشر والتّوزيع ، الجزائر، 1977: 23 .

18. ينظر على سبيل المثال :

BARRE DE MINIAC. C, CROS. F ET RUIZ J: *Les collégiens et l'écriture des attentes famillíales aux exigences scolaire*, Edt SF, Paris, 1993. _ Callewaert. H: *Graphologie et physiologie de l'écriture*, Nauwlaerts, Louvain, 1954. _ Jacques David et Sylvie Plane: *L'apprentissage de l'écriture de l'école au collège.* P.U.F.

19. المسدّي، عبد السّلام : " صياغة المصطلح وأسسها النّظريّة "، ضمن : تأسيس القضيّة الاصطلاحيّة: مجموعة من الأساتذة، بيت الحكمة، قرطاج، تونس، 1989: 15 .

20. DE SAUSSURE. F : 55

21. الجربة، السّيّد المرسي: تحسين الخطّ العربيّ، ط2، دار الشّهاب للطّباعة والنّشر، الجزائر، 1987: 2 (من المقدّمة).

22. قاسم، سيزا وأبوزيد، نصر حامد: مدخل إلى السّيميوطيقا، مقالات مترجمة ودراسات: 81/2.

23. ينظر: بوعبدالله، لعبيدي: «أثر تحسين الخطّ العربيّ في رفع مستوى التّعليم ببلادنا»، ضمن مجلة التّبيين، العدد22، السّنة: 2004: 22.

24. لقد تناولت ظاهرة رداءة الخطّ بالدّراسة، ينظر : بوعبد الله، لعبيدي : العوامل النّفسيّة والمعرفيّة المحدّدة لرداءة الخطّ عند الطّلبة الجامعيّين، دراسة ميدانيّة غرافولوجيّة لعيّنة من الخطوط ، جامعة الجزائر، 2003 (مخطوط).

25. الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: الحيوان، تح: عبد السّلام محمّد هارون، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، د ت، 70/1.

26. ينظر : الشّكل والخطاب: 91 .

27. TAJAN. A ET DELAGE. G : *Ecriture et structures*, Payot, 1981 :69.

28. TAJAN. A ET DELAGE. G89 :نقلا عن الشّكل والخطاب.

29. OLIVAUX. R : *Pédagogie de l'écriture et graphothérapie*, Préface de Peugeot. J, 2eme tirage,Masson,Paris,Milan, Bercelone, Boune, 1991 :3

30. المرجع نفسه: 4.

31. OLIVAUX . R :6

32. OLIVAUX .R : 7.

33. OLIVAUX .R :7

34. المرجع نفسه، الصّفحة نفسها.